

﴿أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا

رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...﴾

[الأنبياء: ٣٠]

وهذه الآية الكريمة واضحة الدلالة على أن الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية ببدأ الله (تعالي) خلقه من جرم ابتدائي واحد (مرحلة الرتق)، وهو قادر على كل شيء، ثم أمر الله (تعالي) بفتح هذا الجرم الابتدائي فانتفق (مرحلة الفتق) وتحول إلى غلالة من الدخان (مرحلة الدخان)، وخلق الله (تعالي) من هذا الدخان كلا من الأرض والسماء أى جميع أجرام السماء وما يتشرّب بينها من مختلف صور المادة والطاقة مما نعلم وما لا نعلم.

جاء نموذج إدنجتون وسطاً بين النموذجين بمعنى أن الكون بدأ بحالة ساكنة، ثم أخذ في التمدد نظراً لطغيان قوى الدفع للخارج على قوى الجاذبية، ولكن انطلاقاً من فكر الإلحاد السائد في عصره اضطر إدنجتون إلى فرض ماض لا نهائي للكون ليتخلص من حقيقة الخلق، وشبح الانفجار الكبير والذي سماه بالبداية «الكارثة».

في السنوات ١٩٣٢ - ١٩٣٤ اقترح ريتشارد تولمان نموذجاً متذبذباً للكون يبدأ وينتهي بعملية الانفجار الكبير. وأخيراً اقترح آلان جوت نموذج الكون المتضخم، والذي يقترح فيه أن الكون المبكر تمدد في أول الانفجار تمدداً رأسياً سريعاً جداً مع سطوع فائق، ثم أخذت معدلات التوسيع في التباطؤ إلى معدلاتها الحالية، ومن منطلق إنكار الخلق ينادي الفلكيون المعاصرون بفكرة الكون المفتوح أى الذي يتمدد إلى ما لا نهاية ولكن حسابات الكتل المفقودة تؤكد انغلاق الكون، هذا الانغلاق الذي سيقف بتمدده عند لحظة في المستقبل يعود الكون فيها إلى الانكماش والتكدس على ذاته ليعاود سيرته الأولى.

وبالتدرج بدأت فكرة تعدد الكون إلى حد ما في المستقبل تلقى القبول من الغالبية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية، وإن بقيت أعداد منهم يدعون إلى ثبات الكون حتى مشارف الخمسينيات من القرن العشرين، ومن هذه الأعداد جماعة كمبردج المكونة من كل من هيرمان بوندي، وتوماس جولد، وفريدي هوبل. وقد قام هذا الفريق بنشر سلسلة من المقالات والبحوث في السنوات ١٩٤٦ – ١٩٤٨ – ١٩٤٩ دفاعاً عن النموذج الثابت للكون ثم اضطروا إلى الاعتراف بحقيقة تعدده بعد ذلك بسنوات قليلة، ومن عجائب القدر بهؤلاء الجادين لحقيقة الخلق، المتنكرين بخلال الخالق (سبحانه وتعالى) المنادين كذباً بأزلية العالم، أن يكون أحد زعمائهم وهو فريد هوبل الذي حمل لواء الادعاء بثبات الكون واستقراره وأزليته لسنوات طويلة هو الذي يعلن بنفسه في سخرية لاذعة تعبير الانفجار الكبير للكون.

### من الدلالات العلمية للأية الكريمة بقايا الإشعاع الكوني كدليل على الانفجار العظيم

في سنة ١٩٤٨م أعلن كل من جورج جامو وزميله رالف ألفر أن تركيز العناصر في الجزء المدرك من الكون يشير إلى أن الجرم الأولى الذي بدأ به الكون كان تحت ضغط وفي درجة حرارة لا يقاد العقل البشري أن يتصورهما، وعند انفجاره انتقلت تلك الحرارة إلى سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن ذلك الانفجار، وسمحت بعده من التفاعلات النووية التي أدت إلى تكون العناصر الأولية من مثل الإيدروجين والهيليوم.

وفي السنة نفسها ١٩٤٨م قدم كل من ألفر وهيرمان اقتراحاً بأن الجرم الابتدائي للكون كان له إشعاع حراري يشابه إشعاع الأجسام المعتمة، وأن هذا الإشعاع تناقصت شدته مع استمرار تعدد الكون وتبرده، ولكن لا بد أن تبقى منه بقية في صفحة السماء، إذا أمكن البحث عنها وتسجيلها، كانت تلك البقية الإشعاعية من أقوى الأدلة على بده خلق الكون بعملية الانفجار الكبير.

وفي سنة ١٩٦٤م تمكن اثنان من علماء مختبرات بل للأبحاث وهما أرنو بنزياس وروبرت ويلسون بمحض المصادفة من اكتشاف تلك البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني على هيئة ضوضاء لاسلكية محيرة تفدي بانتظام إلى الهوائي الذي كان قد نصباً

لغاية أخرى من جميع الجهات في السماء حيثما ووجه الهوائي، وقدرها بثلاث درجات مطلقة - ٢٧٠ درجة مئوية - في الوقت نفسه كان كل من روبرت دايك وتلميذه بييلز قد استنجدوا من معادلاتهما الرياضية الفلكية أن النسب المقدرة لغازى الأيدروجين والهيليوم في الكون تؤكّد الكمّية الهائلة من الإشعاع التي نتجت عن الانفجار الكبير وتدعّم نظرية، ومع تعدد الكون ضعف هذا الإشعاع بالتدريج وانخفضت درجة حرارته إلى بعض درجات قليلة فوق الصفر المطلق - ٢٧٣ درجة مئوية.

في سنة ١٩٦٥ قام كلّ من بنترياس ولوسون بتصحيح قيمة البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني إلى ٢.٧٣ من الدرجات المطلقة، وأثبتا أنها من الموجات الكهرومغناطيسية المتناهية في القصر، وتقدر قيمتها اليوم بأقل قليلاً من قيمتها السابقة ٢.٧٢٦ من الدرجات المطلقة.

في سنة ١٩٨٩ أرسلت مؤسسة ناسا الأمريكية إلى الفضاء قمراً صناعياً لجمع المعلومات حول الإشعاع الحراري الكوني أطلق عليه اسم كوب، وزود بأجهزة فائقة الحساسية أثبتت وجود تلك الأشعة الأثرية المتبقية عن عملية الانفجار العظيم. وكان في هذا الاكتشاف التفسير المنطقى لسبب الأزيز اللاسلكى المتنظم الذى يتعجب به الكون والذى يأتي إلينا من مختلف أطراف الكون المدرك، والذى بقى على هيئة صدى لعملية الانفجار الكبير، وقد منح كل من بنترياس ولوسون جائزة نوبل في سنة ١٩٧٨ م على اكتشافهما الذي كان فيه الدليل المادى الملموس لدعم نظرية الانفجار الكبير، والارتفاع بها إلى مقام الحقيقة شبه المؤكدة، ودفع بالغالبية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية إلى الاعتقاد بصحتها، وسبحان الخالق الذى أنزل في محكم كتابه من قبل أكثر من ألف وأربعين سنة قوله الحق :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وبعد خلق الكون بعملية انفجار كبرى هو من دلائل طلاقة القدرة الإلهية؛ لأنّه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدي إلى تناشر المادة وبعثرتها ولا يختلف وراءه إلا الدمار، أما هذا الانفجار الكوني الفتّق بعد الرتق فقد أدى إلى إبداع نظام كوني له

تصميم دقيق محكم الأبعاد وال العلاقات والتفاعلات ، منضبط الكتل والأجسام والمسافات ، مننظم الحركة والجري والتدخلات ، مبني على الوتيرة نفسها من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته على الرغم من تعاظم أبعاده ، وكثرة أجرامه ، وتعقيد علاقاته ، وانفجار هذه نتائجه لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير حكيم وتقدير مسبق عظيم لا يقدر عليه إلا رب العالمين ، وقد أشار العالم البريطاني المعاصر ستيفن هووكنج إلى شيء من ذلك في كتابه المعنون بـ(تاريخ موجز للزمن) الذي نشره في كندا سنة ١٩٨٨م ، ولكن إشاراته جاءت على استحياء شديد نظراً لجو الإلحاد الذي يسود الغرب بصفة عامة في زمان العلم والتكنية الذي نعيش ، والكتاب مملوء بالاستنتاجات المؤكدة لحقيقة الخلق ، وعظمة الخالق (سبحانه وتعالى).

### القرآن الكريم وخلق السماوات والأرض

في الوقت الذي ساد فيه الاعتقاد الخاطئ بأن الكون الذي نحيا فيه كان منذ الأزل ، وسيبقى إلى الأبد ، وأنه كون لا نهائي ، أي لا تتحده حدود ، وأنه كون ساكن ، ثابت في مكانه ، لا يتغير ، وأن النجوم مثبتة في السماء التي تدور بنجومها كقطعة واحدة حول الأرض ، وأن الكون شامل للعناصر الأربع : التراب ، والماء ، والهواء ، والنار ، وحول هذه الكرات الأربع تدور السماء بنجومها ، وغير ذلك من الخرافات والأساطير ، في هذا الوقت جاء القرآن الكريم مؤكداً أن الكون مخلوق له بداية ، ولا بد أنه ستكون له في يوم من الأيام نهاية ، وكل مخلوق محدود بحدود لا يتجاوزها ، ومؤكداً أن جميع أجرام السماء في حركة دائبة ، وجرى مستمر إلى أجل مسمى ، وأن السماء ذاتها في توسيع دائم إلى أجل مسمى ، وأن السماوات والأرض كانتا في الأصل جرماً واحداً ففتقهما الله (تعالى) فتحولت مادة هذا الجرم الأول إلى الدخان الذي خلقت منه الأرض والسماء ، وأن هذا الكون سوف يطوى ليعود كهيئته الأولى جرماً واحداً مفرداً ينفتق مرة أخرى إلى غلالة من الدخان تخلق منها أرض غير أرضنا الحالية ، وسماوات غير السماوات التي نظرنا في حياتنا الدنيا ، وهنا توقف رحلة الحياة الأولى وتبدأ رحلة الآخرة.

وقد لخص لنا ربنا (تبارك وتعالى) عملية خلق السماوات والأرض وإنفائهما، وإعادة خلقهما في صياغة كلية شاملة من قبل أكثر من ألف وأربعين آية سنة، وذلك في خمس آيات من آيات القرآن الكريم على النحو التالي:

(١) ﴿وَالسَّمَااءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍِ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

(٢) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلًّا شَيْءًا حَتَّىٰ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنياء: ٣٠].

(٣) ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَااءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَاءِعَيْنَ﴾ [فصلت: ١١].

(٤) ﴿يَوْمَ نَطَوْيِ السَّمَااءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقِنُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعَلِيهِنَّ﴾ [الأنباء: ١٠٤].

(٥) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وهذه الآيات القرآنية الكريمة تشير إلى عدد من حقائق الكون الكبرى والمتى منها:

(١) توسيع الكون منذ اللحظة الأولى لخلقها وإلى أن يشاء الله.

(٢) ابتداء خلق الكون من جرم أول واحد (مرحلة الرتق الأول).

(٣) فتق هذا الجرم الأولى أي انفجاره (مرحلة الفتق الأول).

(٤) تحول المادة في الجرم الأولى عند فتقه إلى الدخان (مرحلة الدخان).

(٥) خلق كل من الأرض والسماءات من الدخان الكوني (مرحلة الإitan بكل من الأرض والسماء).

(٦) حتمية عودة الكون بكل ما فيه ومن فيه إلى جرم ابتدائي واحد مشابه للجم الأولي الذي ابتدأ منه الخلق (مرحلة الرتق الثاني أو السماء أو الانسحاق الشديد للكون).

- (٧) حتمية فتق هذا الجرم الثاني أى انفجاره (مرحلة الفتق للررق الثاني).
- (٨) حتمية تحول الررق الثاني بعد فتقه إلى غلالة من الدخان الكوني.
- (٩) إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية وسماءات غير السماءات التي تظللنا اليوم وببداية رحلة الآخرة.

وهذه الحقائق الكونية لم يستطع الإنسان إدراك شيء منها إلا في القرن العشرين، حين توصل العلم الحديث إلى إثبات توسيع الكون في الثلث الأول من ذلك القرن، ثم اندفع بهذه الملاحظة الصحيحة إلى الاستنتاج المنطقى أننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن، فلا بد أن تلتقي جميع صور المادة والطاقة المنتشرة في الكون، كما يلتقي كل من المكان والزمان، وجميع ما في الكون من موجودات في نقطة واحدة تكاد تقترب من الصفر أى العدم على هيئة ابتدائية للكون أو (مرحلة الررق)، وأن تلك الهيئة الأولية كانت متناهية في الصغر، كما كانت بالقطع في مستوى من الكثافة ودرجة الحرارة لا يكاد العقل البشري أن يتصورهما فانفجرت (مرحلة الفتق)، ونتج عن هذا الانفجار الكوني العظيم (الفتق بعد الررق) تحول هذا الجرم الأولى للكون - المتناهي في ضالة الحجم وضخامة الكثافة وشدة الحرارة - إلى غلالة من الدخان (مرحلة الدخان الكوني) الذي خلق الله (تعالى) منه الأرض والسماء (مرحلة الإitan بكل من الأرض والسماء).

هذه الحقائق الكونية الكبرى في خلق السماءات والأرض، لم يستطع الإنسان الوصول إلى إدراك شيء منها إلا في منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك، حين تبلورت نظرية فلكية باسم «نظرية الانفجار العظيم»، وهذه النظرية هي الأكثر قبولاً عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية في تفسير نشأة الكون، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها من قبل أكثر من ألف وأربعين سنة وذلك بقول الحق (بارك وتعالى) :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلَنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]

**والرُّتْقُ**: في اللغة عكس الفتق، لأن الرُّتْق هو الضم والالتحام والالئام سواء كان ذلك طبيعياً أو صناعياً، يقال رقت الشيء فارتقا أي فالثاء والتاء.

**الفتق**: لغة هو الفصل والشق والانشطار.

والمعنى الواضح لنا من هذه الآية الكريمة أن السماوات والأرض كانتا في الأصل شيئاً واحد متصلة، وملتحماً، ففتقه ربنا (تبارك وتعالى) بأمر منه (سبحانه) إلى الأرض التي نحيا عليها، وإلى سبع سماوات من فوقنا.

والقرآن الكريم هنا يعطي الصورة الكلية الجامحة لهذا الحدث الكوني العظيم، ويترك التفاصيل لجهود العلماء والمفكرين الذين يتذكرون في خلق السماوات والأرض، والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة في صفحة السماء لتأكيد في منتصف القرن العشرين صدق ما قد أنزله الله (تعالى) في آخر كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلة وأزكي التسليم) من قبل ألف وأربعين سنة من السنين. هذا السبق القرآني بحقيقة الفتق بعد الرُّتْق يجعلنا نرتقي بنظرية الانفجار الكوني العظيم إلى مقام الحقيقة، ونكون هنا قد انتصرنا بالقرآن الكريم للعلم المكتسب، وليس العكس، والسبب في جلوتنا إلى تلك النظرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية ٣٠ من سورة الأنبياء هو أن العلوم المكتسبة لا يمكن لها أن تتجاوز مرحلة التتنظير في القضايا التي لا تخضع لحس الإنسان المباشر أو إدراكه المباشر، من مثل قضايا الخلق والإفشاء وإعادة الخلق: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿مَا أَشَدَّ دُبُّهُمْ حَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا حَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

